Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٣٠) العدد (٢)٢٠٠٨
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (30) No. (2) 2008

أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ودور هذه النظرية في التوصل إلى المعنى

الدكتور مالك نظير يحيا *

(تاريخ الإيداع ٥ / ٨ / ٢٠٠٨. قبل للنشر في ٢٦ / ١٠ / 2008)

□ الملخّص □

يلقي هذا البحث الضوء على أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء اللغة الغربيين ومن تبعهم من علماء العربية المحدثين ، ويبين أن علماء العربية لم يكونوا بعيدين عن إدراك وظيفة السياق ودلالته ، فقد استعان علماء القرآن الكريم والأصوليون بشقي السياق في فهم دلالة النصوص الشرعية ، كما ربط عبد القاهر الجرجاني فصاحة الكلمة بسياقها اللغوي والتركيب الذي قيلت فيه ، عند حديثه عن نظرية النظم ، وربط الكلام بمقام استعماله.

وأن الخليل وتلميذه سيبويه قد اعتمدا على السياق اللغوي في بيان معنى التركيب ودلالته ، واستعانا بطرق الأداء اللغوي المصاحبة للنطق بالعبارة ، كالوقف والنبر والتنغيم.

وأما اعتمادهم على سياق الحال فيتضح من استعانتهم بإرادة المتكلم والمخاطب في تعيين معنى التركيب، واهتمامهم بملابسات الحال في التوجيه النحوي ، والحكم على التركيب بالصحة أو الإحالة ، وتسويغ الحذف استناداً على دلالة الحركة الجسمية ، والحواس الخمس ، وباقي عناصر سياق الحال. وهكذا تلتقي تطبيقات الخليل وتلميذه سيبويه مع أحدث الاتجاهات اللغوية مع تباعد الزمن والشقة.

الكلمات المفتاحية: النظرية السياقية ، السياق ، تفسير المعنى.

* أستاذ مساعد ــ قسم اللغة العربية ــ كلية الآداب ــ جامعة تشرين ــ اللاذقية ــ سورية.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٣٠) العدد (٢)٢٠٠٨
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (30) No. (2) 2008

Background of the Use Theory of Arab Scholors: Its Role In Explicating Meaning

Dr. Malek N. Yahya*

(Received 5 / 8 / 2008. Accepted 26 / 10 / 2008)

□ ABSTRACT □

This paper highlights the origin of the use theory of western linguists and their followers of Modern Arab linguists. It shows that the Arab grammarians were not far away from understanding the role of context: the Quran interpreters depended on context to explain the meaning of verses, and when speaking about compositionality, Abdul Qaher aljurjani connected the clarity of the word with the context and the structure in which it is used. It also shows that al–khaleel and Sibawiyeh depend on the linguistic context to explicate the content and reference of expressions and extending it to explain sentence meaning. They depend on performance indices such as pause, stress and intonation. Their dependence on the context of situation is clear form their use of the speaker–hearer's intention to decide the utterance meaning, as well as their interest in the pragmatic ambiguity and judging an expression to be false or true, and allowing for deletion, depending on body gestures, the five senses and the rest of the contextual factors. Thus al–khaleel's and Sibawiyeh's applications meet with the linguistic, though they are further in time and space.

Key words: use theory, context, meaning explicatation.

***Associate Professor, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

مقدمة:

يعد اهتمام اللغويين العرب القدامى بالمباحث الدلالية سمة تميز بحثهم اللغوي عن غيرهم ، وقد انتهوا منه إلى نتائج ذات قيمة علمية عالية تلتقي مع كثير مما توصل إليه البحث اللغوي عند اللغويين المعاصرين حول التعميم والتخصيص ، والترادف ، والمشترك اللفظي ، والعلاقة بين اللفظ والمعنى ، ودور السياق في التحديد الدقيق لدلالة هذه الألفاظ.

كما أن اللغويين العرب القدامى درسوا المعنى على المستويين المعجمي والتركيبي ضمن القرائن السياقية ، وحددوا أيضاً الطريقة التي يتم من خلالها الوصول إلى معنى الصيغة التركيبية ، وما يستلزم ذلك من معرفة ثلاثة أمور [١]: " معرفة قصد المتكلم ، ومعرفة الظروف المحيطة بالكلام ، وحال المتكلم أو ما يطلق عليه بالقرائن الحالية، ومعرفة الكلام الفعلي نفسه ، وكذلك معرفة القرائن المقالية ". وهذا الذي ذهبوا إليه يقترب كثيراً من طريقة أصحاب نظرية السياق عند اللغويين المحدثين .

ويعتمد هذا البحث الدراسة التحليلية ، متكئاً على الاستقصاء والوصف والتحليل ، رغبة في تحليل أعمق للنصوص اللغوية.

ومن هذا المنطلق يهدف هذا البحث إلى تفسير الظواهر النحوية والبلاغية السياقية عند علماء العربية القدامى في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، وإلى تبيان إنّ تراثنا اللغوي فيه جوانب تلتقي مع ما طرحه علم اللغة الحديث على الرغم من الفارق الزمني ، وإلى طرح أصول سياقية عربية تستند إلى التراث اللغوي ، وتفيد من حاضر الدراسات اللغوية الغربية.

تمهيد:

السياق لغة من الجذر اللغوي (س وق) ، والكلمة مصدر (ساقَ يَسُوْقُ سَوْقاً وسِيَاقاً) ، فالمعنى اللغوي يشير إلى دلالة الحدث ، وهو التتابع [٢]. وذكر التهانوي: " أن السياق في اللغة بمعنى (الإيراد) " [٣] ، ويقول الدكتور تمام حسان تأكيداً لهذه المعاني اللغوية التي تدل على (التتابع والإيراد) :" المقصود بالسياق (التوالي) ، ومن ثم ينظر إليه من ناحيتين ، أولاهما: توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك والسياق ، من هذه الزاوية يسمى (سياق النص).

والثانية: توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال ، ومن هذه الناحية يسمى السياق (سياق الموقف) " [٤].

ويعد مصطلح (السياق) في الدراسات اللغوية الحديثة من المصطلحات العصية على التحديد الدقيق وإن كان يمثل نظرية دلالية من أكثر نظريات علم الدلالة (Semantic) تماسكاً وأضبطها منهجاً [٥].

---

[1] العبيدان ، موسى مصطفى ، دلالة تركيب الجمل عند الأصوليين ، ط١ ، دمشق ، سورية ، دار الأوائل ، ٢٠٠٢ ، ص٣٢٧.

[2] ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب. بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ط٢ ، سنة ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م ، مادة (سوق) .

[3] التهانوي. كشاف اصطلاحات الفنون. ج٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، ص٤.

[4] حسان ، تمام. قرينة السياق. (بحث قدم في الكتاب التذكاري للاحتفال بالعيد المئوي لكلية دار العلوم). مطبعة عبير للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م ، ص٣٧٥.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

أهمية السياق:

يقوم السياق في أحيان كثيرة بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها ، ومن قديم أشار العلماء إلى أهمية السياق أو المقام وتطلبه مقالاً مخصوصاً يتلاءم معه ، وقالوا عبارتهم الموجزة الدالة " لكل مقام مقال ".

كما أن الكلمة لا معنى لها خارج السياق الذي ترد فيه ، " وربما اتحد المدلول واختلف المعنى طبقاً للسياق الذي قيلت فيه العبارة أو طبقاً لأحوال المتكلمين والزمان والمكان الذي قيلت فيه " [٦].

وللسياق أهمية في التفريق بين معاني " المشترك اللفظي " ، فالتحديد الدقيق لدلالة هذه الألفاظ إنما يرجع إلى السياق .

كما تتركز أهمية سياق الحال أو المقام في الدرس الدلالي في فوائد منها: " الوقوف على المعنى ، وتحديد دلالة الكلمات ، وإفادة التخصيص ، ودفع توهم الحصر ، ورد المفهوم الخاطئ .... وغيرها " [٧].

ويضاف إلى ما تقدم أن السياق يساعد على تعيين دلالة الصيغة ، فربما جاءت بعض الأبنية متحدة الوزن ، ولكنها تختلف في دلالتها على المعنى المراد ، والذي يحدد هذه الدلالة إنما هو سياق الكلام ، فمن ذلك: " أن أسماء الزمان والمكان تصاغ من الثلاثي على وزن (مَفْعَل) بفتح العين ، نحو (مَذْهَب ، ومَشْرَب ، ومَخْرَج ، ومَقْتَل ، ومَكْتَب) ، إلا في حالتين ، فإنهما يكونان فيهما على وزن (مَفْعِل) بكسر العين ، وفي كل ما تقدم لا نستطيع التمييز بين الزمان والمكان إلا بالسياق ، وهو الذي يحدد المراد ويعيّن المقصود. ومن ذلك النسب إلى ما آخره ياء مشددة ، نحو: كرسيّ ، وزنجيّ ،وشافعيّ ففي هذه الحالة يتحد لفظ المنسوب وغير المنسوب ، والذي يفرق بينهما إنما هو السياق " [٨].

وأما على مستوى التراكيب فقد أشار الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف إلى أهمية السياق في الوصول إلى (المعنى النحوي الدلالي) ، فقال: " ولا تكون للعلاقة النحوية ميزة في ذاتها ، ولا للكلمات المختارة ميزة في ذاتها ، ولا لوضع الكلمات المختارة في موضعها الصحيح ميزة في ذاتها ما لم يكن ذلك كله في سياق ملائم " [٩].

وأشار أيضاً إلى التفاعل بين العناصر النحوية والدلالية ، فكما يمد العنصر النحوي العنصر الدلالي بالمعنى الأساسي في الجملة يمد العنصر الدلالي العنصر النحوي كذلك ببعض الجوانب التي تساعد على تحديده وتمييزه ، فبين الجانبين أخذ وعطاء وتبادل وتأثير مستمر. فلا يمكن بحال نكران تأثير دلالة سياق النص اللغوي وسياق الموقف الملابس له على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، " ولا يخفى أن دلالة السياق تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة بمفرداتها نفسها إذا قيلت بنصها في مواقف مختلفة ، تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه مهما كانت بساطة هذه الجملة وسذاجتها "[١٠].

---

[5] حبلص ، محمد يوسف. البحث الدلالي عند الأصوليين ، ط١ ، مكتبة عالم الكتب ، سنة ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ، ص٢٨.

[6] عبد اللطيف ، محمد حماسة. النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي) ، ط١ ، القاهرة ، دار غريب ، ١٩٨٣ ، ص٣٣،٣٦.

[7] حيدر ، فريد عوض. سياق الحال في الدرس الدلالي (تحليل وتطبيق) ، د.ط ، مصر ، مكتبة النهضة المصرية ، ص٣٠-٣٥.

[8] أبو السعود ، دردير محمد. دلالة السياق وأثرها في الأساليب العربية ، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط ، عدد ٧ ، سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ، ص٥٠٧-٥٠٩.

[9] عبد اللطيف ، محمد حماسة. النحو والدلالة ، ص٩٨.

[10] عبد اللطيف ، محمد حماسة. النحو والدلالة ، ص١١٣.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

السياق عند اللغويين المحدثين:

تعد نظرية السياق عند اللغويين الغربيين ، حجر الأساس في " المدرسة اللغوية الاجتماعية " التي أسسها (فيرث) في بريطانيا ، والتي وسّع فيها نظريته اللغوية بمعالجة جميع الظروف اللغوية لتحديد المعنى ، ومن ثم حاول إثبات صدق المقولة بأن " المعنى وظيفة السياق ".

" ولقد تعددت المناهج اللغوية الغربية المختلفة لدراسة المعنى كالنظرية الإشارية التي قامت على يد كل من (أوجدن) و(ريتشاردز) اللذان ظهرت أفكارهما في كتابهما The Meaning of Meaning والنظرية التصورية أو العقلية للفيلسوف (جون لوك) والنظرية السلوكية التي يُعد (بلومفيلد) المسؤول عن تقديمها إلى علم اللغة " [١١].

ولكن على الرغم من ذلك ، لم تستطع هذه المناهج ــ التي ظهرت قبل مدرسة " فيرث " ــ أن تقدم لنا فكرة السياق بالمفهوم الذي تحدد على يديه وأصبح نظرية دلالية متكاملة الجوانب ، " إذ أخذ اللغويون الاجتماعيون على علم اللغة الحديث إغفاله للسياق الذي تستعمل فيه اللغة ، ويتطلعون من وراء ذلك إلى منهج في درس اللغة ليستشرفها من خلال بُعد أوسع ، ويحاول أن يتبين كيف تتفاعل اللغة مع محيطها " [١٢].

كما لم تسلم نظرية " النحو التحويلي التوليدي " ــ التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الحالي على يد رائدها الأول " نعوم تشومسكي " ــ من الانتقاد لأنها لم تحفل في بدايتها الأولى وأصولها بالسياق.

وينقسم السياق عند علماء اللغة الغربيين وعلى رأسهم (فيرث) إلى " السياق اللغوي " ، و" السياق الموقفي " ، وقد أضاف إليهما أحد أتباعه وهو (جون ليونز) " السياق الثقافي ".

وأما عناصر سياق الحال ، فقد رأى (فيرث) أنها جزء من أدوات علم اللغة ، ولهذا اقترح العناية بالعناصر الآتية:

١- الملامح الوثيقة بالمشتركين ، كالأشخاص ، والخصائص الذاتية المميزة للحدث الكلامي أو غير الكلامي لهؤلاء المشتركين.

٢- الأشياء ذات الصلة بالموضوع التي تفيد في فهمه.

٣- تأثيرات الحدث الكلامي.

أما اللغويون المحدثون العرب ، فقد بدأ اهتمامهم بدراسة السياق بتأثير واضح من نظرية (فيرث) السياقية ؛ لأنهم تلقوا هذا العلم على يديه ــ بشكل مباشر أو غير مباشر ــ ومن أمثلة هؤلاء الدكتور تمام حسان ، والدكتور كمال بشر ، والدكتور محمود السعران ..... وغيرهم ، ويظهر ذلك بجلاء في مؤلفاتهم العلمية [١٣].

السياق عند البلاغيين والأصوليين والنحاة:

وبعد التعرف على عناصر النظرية السياقية عند علماء اللغة الغربيين ومن تبعهم من علماء العرب ، سنحاول فيما يلي إلقاء الضوء على العديد من النظريات والتطبيقات الثاقبة التي وردت عند علماء العربية ، محاولين إظهار

---

[11] عمر ، أحمد مختار. علم الدلالة ، ص٥٤-٥٧ .

[12] الموسى ، نهاد. نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، ط١ ، عمان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ ، ص٨٦-٨٧.

[13] انظر على سبيل المثال كلام د. تمام حسان عن أستاذه " فيرث " كما يقول بنفسه في كتابه (مناهج البحث في اللغة) ، ص٢٥١ ، وشرحه لمصطلح " سياق الموقف " عند " فيرث " أو ما أسماه " الماجريات " ، وكتاب د. محمود السعران (علم اللغة) مقدمة للقارئ العربي ، ص٣٣٧ ، ٣٤٠.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

الأصول النظرية أو التطبيقية للنظرية السياقية عندهم ، مما لا يدع مجالاً للشك في معرفة علمائنا الأوائل بتأثير العناصر السياقية في معنى التركيب ودلالته ، وهم الأسبق زماناً ، وإن لم يضعوا تطبيقاتهم هذه في إطار نظرية متكاملة المعالم ولم يضعوا لها اسماً.

ومن ثم سنعرض بإيجاز فيما يلي للسياق عند البلاغيين والأصوليين ثم نفصل القول عن السياق عند النحاة ولا سيما الأوائل منهم حتى تتضح المسألة.

السياق عند البلاغيين:

انصب اهتمام البلاغيين في دراستهم للسياق على فكرة (مقتضى الحال) والعلاقة بين المقال والمقام. فأما مصطلح (مقتضى الحال) فقد اهتم به علماء (علم المعاني) و(الحال) في اصطلاحهم يعدل (مقتضى الحال).

وإذا ما نظرنا إلى (المقال) على أنه يمثل (السياق اللغوي) فإننا نجد أن البلاغيين قد أولوه عناية كبيرة. وليس أدل على ذلك من ربط العلامة عبد القاهر الجرجاني فصاحة الكلمة بسياقها اللغوي والتركيب الذي قيلت فيه ، وأن فصاحة اللفظة تأتي من السياق الذي ينظم الألفاظ لا من الألفاظ ذاتها ، وأن اللفظة لا تكتسب الفصاحة في حال انفرادها ..... وإنما في حال دخولها السياق ، ونلمس لهذا نصوصاً كثيرة يناقش فيها هذا المفهوم ، حيث يقول: " وهل تجد أحداً يقول: (هذه اللفظة فصيحة) ؛ إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحُسْنَ ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها " [١٤] ، فالألفاظ: " لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ " [١٥].

فهو يرد إلى السياق كل مزية ، وكل فضيلة تحصل في الكلام ، فعن السياق تنتج الفصاحة ، والتمكن ، والأثر في تلقي الكلمة ، يأتي من خلال ربطها بموضعها الذي وردت فيه ، وبالمعنى الذي يقصد إليه المتكلم ، وبالطريقة التي نظمها ، ويجمل رأيه في الفصاحة فيقول: " وجملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه ، ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها ، ومعلقاً معناها بمعنى ما يليها. فإذا قلنا في لفظة (اشتعل) من قوله تعالى: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ [١٦]: إنها في أعلى المرتبة من الفصاحة ، لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها ، ولكن موصولاً بها الرأس معرفاً بالألف واللام ومقروناً إليها الشيب منكّراً منصوباً " [١٧] .

فعبد القاهر نظر " في الكلمة المفردة قبل دخولها التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلام إخباراً ، وأمراً ، وتهيأ ، واستخباراً ، وتعجباً ، فوجد أنها لا تؤدي معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة ، بل إنها تفقد خصوصيتها في حالة الإفراد ، فلا يختص بها إنسان دون إنسان " [١٨].

---

[14] الجرجاني ، عبد القاهر. دلائل الإعجاز ، ٤٤-٤٥ ، تح: د. محمد رضوان الداية ، ود. فايز الداية ، مكتبة سعد الدين ، دمشق ، ط٢ ، سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

[15] الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ٩٥.

[16] سورة مريم: آية ٤.

[17] الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ٣٦٤.

[18] عبد المطلب ، محمد ، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ، ص٦٠ ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، ط١ ، ١٩٩٥ .

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

إذن فهو دائم التأكيد على أن السمة التي يأخذها اللفظ في عملية النظم تأتي من معناه الذي يأخذه ضمن التركيب اللغوي ، ومن صلته وتعلقه بالألفاظ الأخرى .

وإذا ما نظرنا إلى (المقام) على أنه يمثل (سياق الموقف) وجدنا ذلك أيضاً واضحاً عند البلاغيين ، فهذا عبد القاهر الجرجاني يفصل في حديثه عن بلاغة أسلوب التقديم والتأخير رابطاً بين صياغته وبين سياق الحال ، أي رابطاً بين المقام والمقال أو بين بنية السياق وبيئته ، وثار على اللغويين العرب ؛ " لأنهم لم يفيدوا من مبدأ جيد وضعه سيبويه مؤداه ربط الكلام بمقام استعماله " [١٩] ، بل وقع في ظنهم أن كل تقديم أو تأخير أو حذف ..... إنما هو للعناية والاهتمام كما قال صاحب الكتاب [٢٠].

وبرأيه أن القول السائد " إنه قدم للعناية ، ولأن ذكره أهم " قول غير دقيق ، فلا بد من معرفة " من أين كانت تلك العناية ، وبم كان أهم ؟ " [٢١] ، ويرى أنها ترجع إلى النظم وطريقة تقديم المعنى ، حيث يعظم التفاوت ويشتد التباين بين أسلوب وآخر كما يقول [٢٢].

ويورد قول النحويين: " إن معنى ذلك أنه قد تكون أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ولا يبالون مَن أوقعه ، كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجي يخرج فيعيث ويُفسد ويكثر في الأذى أنهم يريدون قتله ولا يبالون مَن كان القتل منه ، فيقول: قتلَ الخارجيَ زيدٌ ، ولا يقول: قتلَ زيدٌ الخارجيَّ، لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له (زيد) جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمّهم ويتصل بمسرتهم ، ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له ، ومتطلعون إليه متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد ، وأنهم قد كفوا شره وتخلصوا منه .

ثم قالوا ــ أي النحاة ــ: " فإن كان رجلٌ ليس له بأس ولا يُقدّر فيه أنه يقتل رجلاً وأراد المخبر أن يخبر بذلك فإنه يقدم ذكر القاتل ، فيقول: قتلَ زيدٌ رجلاً ، ذاك لأن يعنيه ويعنى الناس من شأن هذا القتل طرافتُه وموضعُ الغدرة فيه وبُعدُه كان من الظن " [٢٣].

فهنا نجد أن دلالة التقديم والتأخير للفاعل والمفعول تختلف من سياق إلى آخر. وذلك يخضع للمقام ، أو لغرض الكلام.

فترتيب الجملة الأولى (قتلَ الخارجيَّ زيدٌ) مناسب للحال الذي يرتبط بغرض الناس في ذلك " لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له (زيد) جدوى وفائدة " الخ. وأما ترتيب الجملة الثانية (قتل زيدٌ رجلاً) فهو مناسب للحال ودال على الغرض والقصد ..... لأن الذي يعنيه ويعني الناس من شأن هذا القتل طرافتُه وموضع الندرة فيه .....

فباختلاف المقام اختلف الحال أو اختلفت صياغة الجملة في التقديم والتأخير فدلالة السياق تتكامل بين طريقة الصياغة ومراعاة المقام.

---

[19] انظر: د. البدراوي زهران: عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني (المفتن في العربية ونحوها) ، ٢٣٨–٢٤٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٤ ، سنة ١٩٨٧ م.

[20] وهو المبدأ الذي وضعه سيبويه عند حديثه عن جواز تقديم المفعول على الفاعل ، فقال: " كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم " الكتاب ٣٤/١.

[21] الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ١٠٧–١٠٨.

[22] الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ١٣٦–١٣٧.

[23] الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ١٣٦–١٣٧.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

ويرى الدكتور كمال بشر :" أن البلاغيين قد وفّقوا في إدراك شيء مهم في الدرس اللغوي وهو المقام ، ولكنهم ــ كعادتهم ــ طبقوه بطريقتهم الخاصة ، لقد كانت عنايتهم في (المقام) موجهة نحو الصحة والخطأ ، أو نحو الجودة وعدمها. ولهذا كانت نظرتهم إلى المقام أو مجريات الحال أو ما يسميه هو المسرح اللغوي نظرة معيارية لا وصفية " [٢٤]. وبذلك يختلف المقام عند البلاغيين عن سياق الموقف عند المحدثين. " أضف إلى ذلك أن (المقام) عند البلاغيين معيار جمالي ، أي يحكم بمراعاته ببلاغة المقال وبعدم مراعاته بعدم البلاغة " [٢٥] ، وبهذا يكون النحاة أقرب إلى مفهوم (سياق الحال أو الموقف) من البلاغيين.

السياق عند الأصوليين:

اعتمد علماء علوم القرآن والمفسرون في دراسة النص القرآني وفهم دلالته على جانبي السياق: اللغوي الكلي، أو ما يسمي (بسياق النص) ، و(سياق الموقف). " إذ نظروا إلى الآية القرآنية أو مجموعة الآيات على أنها جزء من نص متكامل هو القرآن ، ومعنى ذلك أنهم لا يعتمدون على السياق اللغوي الجزئي المتمثل في الآية الواحدة أو مجموعة الآيات المعزولة عن سياقها الكلي " [٢٦] ، واهتموا بعنصر آخر مكمل للسياق اللغوي في النص القرآني وهو القراءات القرآنية ، كما أفردوا المؤلفات لعلم الوقف والابتداء وكيفية الوصل والفصل وما يترتب على ذلك من دلالات وهي من عناصر السياق اللغوي. ويتمثل سياق الموقف عندهم فيما عُرف (بأسباب النزول) ، " فقد اعتنوا بمعرفة أسباب النزول لآيات النص القرآني ؛ لأنها تعينهم على فهم معانيه " [٢٧].

وأما علماء (أصول الفقه) فقد اعتمدوا على فكرة السياق في بيان المعنى في النصوص الشرعية ، إذ يعد اللجوء إلى قرائن السياق من وسائلهم لتحديد المعنى " وقد وعوا تماماً أن ثمة نوعين من القرائن السياقية ، الأولى هي القرائن اللفظية ، والثانية هي القرائن المقامية ، وفهموا الأثر الذي تقوم به هذه القرائن في تحديد دلالة النص " [٢٨]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ / البقرة ٢٢٣ /. فمعنى هذه الآية غامض ومنشأ هذا الغموض كلمة (أنّى) يقول حافظ الدين النسفي (٧١٠ هـ): وقوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ ، فكلمة (أنّى) مشكلة لاستعمالها بمعنى (أين) كقوله تعالى: ﴿ أَنَّى لَكِ هَـذَا ﴾ / آل عمران ٣٧ / ، أي من أين لك هذا ؟ وهذا يوجب الإطلاق في جميع المواضع ، وبمعنى: (كيف) قال الله تعالى: ﴿ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ ﴾ / مريم ٢٠ / ، وهذا يقتضي الإطلاق والتخيير في الأوصاف أي: كيف شئتم ؟ سواء كانت قاعدة أو مضطجعة أو على الجنب بعد أن يكون المأتى واحداً ، فزال الإشكال بالتأمل في السياق حيث سماهن حرثاً كما قال: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ أي مواضع حرث لكم ، فشبههن بالمحارث تشبيهاً لما يلقى في أرحامهن من النطفة التي فيها النسل بالبذر ، أي الغرض الأصلي وهو طلب النسل لا قضاء الشهوة ، فأتوهن من المأتى الذي

---

[24] بشر ، كمال. دراسات في علم اللغة (القسم الثاني). د.ط ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٦٩.

[25] ثابت ، فتحي علم الدين. أثر السياق في مبنى التركيب ودلالته (دراسة نصية من القرآن). رسالة دكتوراه ، جامعة المنيا ، كلية الدراسات العربية والإسلامية ، ١٩٩٤ م ، ص٧٤.

[26] انظر: أثر السياق في مبنى التركيب ودلالته ، ص٧٩–٨٠.

[27] ثابت ، فتحي علم الدين. أثر السياق في مبنى التركيب ودلالته ، ٨٦.

[28] د. حبلص ، محمد يوسف. البحث الدلالي عند الأصوليين ، ١٢.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

يتعلق فيه هذا الغرض وهو مكان الحرث بأي جهة شئتم [٢٩]. فحافظ الدين النسفي هنا استند إلى السياق المقالي للكشف عن المراد بكلمة (أنّى) التي أضفت على النص غموضاً دلالياً ، وهذا السياق المقالي هو كلمة (الحرث) السابقة على كلمة (أنّى) والواقعة معها في نفس السياق. " ومن عناصر السياق اللغوي الذي اعتمد عليها الأصوليون في رصد الدلالات المختلفة للأمر والنهي ما يسمى بالنبر والتنغيم في الدراسات اللغوية الحديثة"[٣٠].

يقول الإمام أبو حامد الغزالي عند حديثه عن دلالة الأمر: " إذا قيل أمرنا بكذا ، حَسُن أن يستفهم فيقال: أمر إيجاب أو أمر استحباب وندب. ولو قال: رأيت أسداً ، لم يحسن أن يقال: أردت سبعاً أو شجاعاً ؛ لأنه موضوع للسبع ، ويصرف إلى الشجاع بقرينة " [٣١].

ولا تفوت الإمام أبو حامد الغزالي الإشارة إلى أهمية القرائن اللغوية والقرائن الحالية والرموز والإشارات والحركات الجسمية للمتكلم في إفادة الاستغراق والعموم ، فيقول: " إن قصد الاستغراق يعلم بعلم ضروري يحصل عن قرائن أحوال ورموز من عاداته ومقاصده وقرائن مختلفة لا يمكن حصرها في جنس ولا ضبطها بوصف بل هي كالقرائن التي يعلم بها خجل الخجل ووجل الوجل وجبن الجبان ، وكما يعلم قصد المتكلم إذا قال السلام عليكم ، أنه يريد التحية أو الاستهزاء واللهو ".

ومن جملة القرائن " فعل المتكلم ، فإنه إذا قال على المائدة: هات الماء ، فهم أنه يريد الماء العذب البارد دون الحار المالح.

وقد تكون دليل العقل ؛ كعموم قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا ﴾ / سورة هود: الآية ٥-٦ / ، وخصوص قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ / سورة الزمر: الآية ٦٢ / إذ لا يدخل فيه ذاته وصفاته.

ومن جملة تكرير الألفاظ المؤكدة ، كقوله: " اضرب الجناة وأكرم المؤمنين كافتهم صغيرهم وكبيرهم ، شيخهم وشبابهم ، ذكرهم وأنثاهم ، كيف كانوا وعلى أي وجه وصورة كانوا ، ولا تغادر منهم أحداً بسبب من الأسباب ووجه من الوجوه ، ولا يزال يؤكد حتى يحصل علم ضروري بمراده " [٣٢].

ثم يرد على من اعترض على قرائن الحال ، فقال: " أما قولهم ما ليس بلفظ فهو تابع للفظ فهو فاسد ، فمن سلّم أن حركة المتكلم وأخلاقه وعاداته وأفعاله وتغير لونه وتقطيب وجهه وجبينه وحركة رأسه وتقليب عينيه تابع للفظة ، بل هذه أدلة مستقلة يفيد اقتران جملة منها علوماً ضرورية.

فإن قيل: فبمَ عرفت الأمة عموم ألفاظ الكتاب والسنة إن لم يفهموه من اللفظ ؟ وبمَ عرف الرسول من جبريل وجبريل من الله تعالى حتى عمموا الأحكام ؟ قلنا: أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد عرفوه بقرائن أحوال النبي عليه السلام وتكريراته ، وعاداته المتكررة ، وعلم التابعون بقرائن أحوال الصحابة وإشاراتهم ورموزهم وتكريراتهم المختلفة. وأما جبريل عليه السلام فإنه سمع من الله عز وجل بغير واسطة ،فالله تعالى يخلق له العلم الضروري بما

---

[29] حافظ الدين النسفي ، أبو البركات عبد الله بن أحمد ، كشف الأسرار ، شرح المنصف على المنار ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ج١ ، ص٢١٧-٢١٨ .

[30] د. حبلص ، محمد يوسف. البحث الدلالي عند الأصوليين ، ٥٤-٥٨.

[31] الغزالي ، الإمام أبو حامد. المستصفى من علم الأصول. ط١ ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، ١٣٢٢ هـ ، ٤٢٩/١.

[32] الغزالي. المستصفى من علم الأصول ، ٤١/٢-٤٢.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

يريده بالخطاب بكلامه المخالف لأجناس كلام الخلق. وإن رآه جبريل في اللوح المحفوظ ، فإنه يراه مكتوباً بلغة ملكية ودلالة قطعية لا احتمال فيها " [٣٣].

السياق عند النحاة:

إن كلمة السياق من الألفاظ التي استخدمها القدامى من النحاة بمدلولها اللغوي العام ، ولم تكن تحمل المفهوم الاصطلاحي الذي أصبح شائعاً فيما بين علماء اللغة المحدثين ، ولا سيما الدلاليين فيهم.

وحول اهتمام النحاة بالعوامل الاجتماعية في اللغة ، يقرر الدكتور كمال بشر: " أنهم لم يقتصروا على النظر في بنية النص اللغوي ، كما لو كان شكلاً منعزلاً عن العوامل الخارجية التي تلفه وتحيط به ، وإنما أخذوا مادتهم اللغوية ــ على ما يبدو ــ من معالجتهم لها ، على أنها ضرب من النشاط الإنساني الذي يتفاعل مع محيطه وظروفه، كما فطنوا إلى أن الكلام له وظيفة ومعنى في عملية التواصل الاجتماعي ، وأن هذه الوظيفة وذلك المعنى لهما ارتباط وثيق بسياق الحال أو المقام ، وما فيه من شخوص وأحداث ، وقد ظهر هذا كله في دراستهم وإن لم ينصوا عليه كمبدأ من مبادئ التقعيد ، أو أصلاً من أصول نظريتهم اللغوية " [٣٤].

وإذا تأملنا آراء الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) ــ كما يتضح من كتاب تلميذه سيبويه ــ نرى أنه من أوائل النحويين الذين اعتمدوا على السياق اللغوي في دراسته للتراكيب النحوية ، كما يُعدّ من الرواد الذين اهتموا بعناصر سياق الموقف المتمثلة في المتكلم ، والمخاطب ، والعلاقة بينهما ، وعلم المخاطب بالمعنى إلى غير ذلك مما يرتبط بالمقام.

فمن أمثلة اعتماد الخليل على " السياق اللغوي " ما نسبه إليه تلميذه في معرض تحليله لقول الشاعر [٣٥]:

إذا تَغَنّى الحَمامُ الوُرقُ هَيَّجَني ولَو تَغَرَّبتُ عَنها أُمِّ عَمّارِ [البسيط]

" قال الخليل ــ رحمه الله ــ: لما قال (هيَّجني) عرف أنه قد كان ثم تذكر لتذكرة الحمام وتهييجه ، فألقي ذلك الذي قد عُرِف منه على (أم عمار) كأنه قال: هيّجني فذكّرني أم عمار. ومثل ذلك أيضاً قول الخليل ــ رحمه الله ــ ، وهو قول أبي عمرو: ألا رجلَ إما زيداً وإما عَمراً ؛ لأنه حين قال: (ألا رجلَ) فهو متمنٍ شيئاً يسأله ويريده ، فكأنه قال: اللهم اجعله زيداً أو عمراً ، أو وفِّق لي زيداً أو عمراً " [٣٦].

ومعنى كلام الخليل ، أن الشاعر إنما نصب (أم عمار) بفعل دل عليه السياق اللغوي أو (سياق الموقف) ، وذلك عند توجيهه النصب في قولك: انْتَهِ خيراً لك [٣٧] ، فيقول: " نصبته ؛ لأنك قد عرفت أنك إذا قلت له: (انْتَهِ) أنك تحمله على أمر آخر ، فلذلك انتصب ، وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام ، ولعلم المخاطب أنه محمولٌ على أمر حين قال له: انْتَهِ ، فصار بدلاً من قوله: ائتِ خيراً لك ، وادخل فيما هو خيرٌ لك " [٣٨].

---

[33] المصدر السابق ، ٤٢/٢-٤٣.

[34] بشر ، كمال. علم اللغة الاجتماعي ، د.ط ، دار الثقافة العربية ، سنة ١٩٩٤ م ، ص٦٦.

[35] نسبه محقق الكتاب للنابغة الذبياني ، الكتاب ، ٢٨٦/١.

[36] سيبويه ، عمرو بن عثمان. الكتاب ، تح. عبد السلام محمد هارون ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ٢٨٦/١.

[37] ومنه قوله تعالى: ﴿ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ ﴾ / النساء ١٧١ / و(وراءك أوسع لك) و(حسبك خيراً لك) انظر: الكتاب ٢٨٢/١.

[38] سيبويه. الكتاب ، ٢٨٣/١-٢٨٤ .

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

وهكذا يتضح بجلاء اعتماد الخليل على شقي السياق في بيان ما عرض لمبنى التركيب وبيان دلالته ، أما السياق اللغوي فقد اتضح من نصبه (خيراً) بفعل مضمر دل عليه ما قبله ، وهو (انْتَهِ) ، " كما يمكن تفسير عدم نصبه لكلمة (خيراً) بالفعل (انْتَهِ) بالاعتماد على الفاصلة الصوتية والوقف على الفعل (انْتَهِ) " [٣٩] وهي من عناصر السياق اللغوي كذلك.

وأما (سياق الموقف) فنجده ممثلاً في علم المخاطب بغرض المتكلم وموضوع الكلام ، وتعليله حذف الفعل بكثرة استعمالهم لهذا التركيب ، وهي ــ أي علة كثرة الاستعمال ــ من العلل الدلالية إذ تؤدي إلى علم المخاطب بالمعنى ووضوح الدلالة لديه.

واعتمد على " إرادة المتكلم " في توجيه ما انتصب على (التعظيم والمدح) في نحو (الحمد لله أهلَ الحمدِ) [٤٠] " وزعم الخليل أن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدِّث الناس ولا مَنْ تخاطب بأمر جهلوه ، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمتَ ، فجعلته ثناء وتعظيماً " [٤١].

وهكذا ، فإن هذه الأمثلة الواردة عن الخليل ، لا تدع مجالاً للشك في أن الخليل اعتمد اعتماداً واضحاً على السياق اللغوي وغير اللغوي في تقعيده النحوي وبيان معنى التراكيب ودلالاتها ــ وإذا كان الخليل ــ في هذه الفترة المبكرة من التقعيد النحوي ، قد استخدم السياق بشقيه في بيان دلالة التراكيب على هذا النحو العلمي المبهر ، فمن الطبيعي أن يفيد النحاة من بعده بهذه النظرات الثاقبة ، وهذا ما سيتضح بجلاء عند سيبويه [٤٢].

فقد أولى سيبويه (ت ١٨٠ هـ) كلاً من (السياق اللغوي) و(سياق الحال) اهتماماً كبيراً وسنعمد فيما يلي إلى بيان بعض عناصر السياق اللغوي وسياق الحال عنده ، مع بيان أثر هذين السياقين في معاني التراكيب ، من حيث الذكر والحذف ، أو التقديم والتأخير ، أو التوجيه النحوي والحكم بصحة التركيب أو إحالته.

يتضح من ذلك استعانته (بالسياق اللغوي) بكثرة في بيان أحد العناصر المحذوفة في التركيب ، فمن ذلك الاستغناء عن تكرار (كل) في قول الشاعر:

أَكُلَّ امرِئٍ تَحسَبِينَ امرأً ونَارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيلِ نارا [المتقارب]

بجر (نارٍ) والتقدير (وكل نارٍ) وذلك: " لذكرك إياه في أول الكلام ، ولقلة التباسه على المخاطب " [٤٣].

فقد اعتمد على عنصر لغوي ذكر في جملة سابقة للدلالة على العنصر المحذوف في الجملة الثانية ، وجعل ذكر العنصر الأول سبباً في عدم التباس المعنى على المخاطب.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ (البقرة: ١٣٥) " أي: بل نتَّبِع ملة إبراهيم حنيفاً ، كأن قيل لهم: اتّبعوا ، حين قيل لهم ﴿ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىَ ﴾ " [٤٤] ، و" مما ينصب أيضاً على إضمار الفعل

---

[39] ثابت ، فتحي علم الدين. أثر السياق في مبنى التركيب ودلالته ١٢–١٣ رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة المنيا ، كلية الدراسات العربية والإسلامية.

[40] سيبويه. الكتاب ، ٦٢/٢ .

[41] سيبويه. الكتاب ، ٦٥/٢.

[42] انظر على سبيل المثال ، سيبويه ، الكتاب: ١٠٢/٣ ، إذ يتضح أثر غرض المتكلم في شكل التركيب ، ودخول الفاء في قولك (الذي يأتيني فله درهمان) ؛ لأنه أراد معنى الجزاء وإن لم يجزم.

[43] سيبويه ، الكتاب: ٦٦١/١ ــ ٢٣٢/١ .

[44] سيبويه ، الكتاب: ٢٥٧/١ .

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

المستعمل إظهاره ، قول العرب: حدّث فلانٌ بكذا وكذا ، فتقول: صادقاً والله ، أو أنشدك شعراً فتقول: صادقاً واللهِ ، أي: قاله صادقاً ؛ لأنه إذا أنشدك فكأنه قد قال كذا " [٤٥].

أي إن السياق اللغوي المذكور قبله دل على الفعل المحذوف ، وإذا كان من السياق اللغوي النظر إلى طريقة ترتيب العناصر اللغوية داخل التركيب وما يترتب على ذلك من دلالات فقد أولى سيبويه هذا الترتيب عناية كبيرة واهتماماً واسعاً ، يقول سيبويه عن قولك: (ضربَ عبدُ اللهِ زيداً): " فإن قدّمت المفعول وأخرّت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول ، وذلك قولك: ضربَ زيداً عبدُ اللهِ ؛ لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً ، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه ، وإن كان مؤخراً في اللفظ ، فمن ثم كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدّماً ، وهو عربي جيّد كثيرٌ ، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم " [٤٦].

فهو في هذا النص يعتمد على دراسة العلامة الإعرابية في بيانها للفاعل والمفعول حتى مع التقديم والتأخير ، فقد لاحظ أن المعنى النحوي لزيد وعبد الله غير مختلف في كلتا الجملتين ، وهذا يتضح من قوله: (جرى اللفظ كما جرى في الأول) ، أي رفعت الفاعل (عبد الله) مع التأخير ، ونصبت المفعول (زيداً) مع التقديم ، وهذه العلامة الإعرابية من عناصر السياق اللغوي الدالة على الفاعل والمفعول في مثل هذه الجمل التي خالفت الرتبة الأصلية.

ثم يربط سيبويه هذا التقديم بإرادة المتكلم ، أو العرب ؛ لأنك إنما أردت بالفاعل المؤخر ما أردت به مقدماً ، ولم ترد أن تشغل الفعل بالمفعول ، وإن كان الفاعل مؤخراً في اللفظ ، وهذا التقديم عربي جيد ، بل كثيرٌ ؛ لأن العرب تقدم الذي بيانه أهم وأعنى لهم ، فقد اكتسبوا من ذلك ضرباً من التوسع في الكلام.

ويتضح مما سبق أن ترتيب العناصر اللغوية داخل التركيب وما يطرأ عليه من تقديم أحد العنصرين على الآخر لا يسوغّه فقط السياق اللغوي ، إنما يرجع ذلك أحياناً إلى سياق الحال والعوامل الخارجية التي تحيط بالحدث اللغوي ، كالمتكلم وموقفه من العنصرين وتقديمه لما يراه محل العناية والاهتمام ، وهو ما يظهر في عبارة سيبويه المشهورة: (كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم).

وهكذا تنبّه سيبويه " إلى أثر المتغيرات الخارجية في ترتيب عناصر الجملة ، وكأنه يرسم بذلك لأبناء اللغة أن يساوقوا بين هذه المتغيرات والوجوه الجائزة المناسبة عند استعمال اللغة " [٤٧].

كما أشار سيبويه في مواضع متفرقة إلى طريقة الأداء اللغوي المصاحبة للتركيب ، أو ما يطلق عليه التطريز الصوتي ، والمتمثلة في " الوقف " و" النبر والتنغيم ".

فأما الوقف فقد اعتمد عليه سيبويه في توجيه المعنى على مستوى التركيب ، وجعله ضابطاً لصحة التركيب ؛ فمن ذلك قوله: " واعلم أنه يقبح: زيداً عليك ، وزيداً حَذْرَك ؛ لأنه ليس من أمثلة الفعل ، فقبح أن يجري ما ليس من الأمثلة مجراها ، إلا أن تقول (زيداً) ، فتنصب بإضمارك الفعل ، ثم تذكر (عليك) بعد ذلك " [٤٨].

(فعليك) اسم فعل أمر يتعدى إلى مأمور به ، و(حَذْرَك) اسم فعل يدل على النهي ويتعدى أيضاً إلى المنهي عنه ، ولكنهما لا يتصرفان تصرف الفعل ، ولذلك قَبُحَ عند سيبويه تقديم معموله عليه في نحو (زيداً عليك) و(زيداً حذرَك) ، إلا أنه وجد وجهاً لجواز ذلك مستعيناً بظاهرة الوقف ، إذ تقول (زيداً) وتنصبه على إضمار

---

[45] المصدر السابق: ١/٢٧١.

[46] سيبويه. الكتاب ، ١/٣٤ .

[47] الموسى ، نهاد. نظرية النحو العربي. ص٩٣ .

[48] سيبويه. الكتاب: ١/٢٥٢-٢٥٣.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

فعل الإغراء أو الاختصاص ، ثم تقول بعد وقفة: (عليك) للبيان ، وهكذا أسهم الوقف في صحة التركيب وصحة معناه.

وأما " التنغيم " فيظهر من قول سيبويه في باب الندبة: " اعلم أن المندوب مدعوٌ متفجّعٌ عليه ، فإن شئت ألحقت في آخر الاسم الألف لأن الندبة كأنهم يترنمون فيها ..... واعلم أن المندوب لا بدّ له من أن يكون قبل اسمه (يا) أو (وا) ، كما لزم (يا) المستغاثَ به ، والمتعجبَ منه " [٤٩].

فانظر إلى قوله (كأنهم يترنمون فيها) ، والترنم: تطريبٌ وتحسينٌ للصوت يكسبه النادب لصيغة المندوب ؛ لأن الندبة تفجّع ونوح من حزن وغمّ يلحق النادب على المندوب عند فقده ، فيدعوه ــ وإن كان يعلم أنه لا يُجاب ــ لإزالة الشدة ، وندبته للدلالة على ما ناله من الحزن لفقده ، " ولما كان المندوب ليس بحيث يسمع احتيج إلى غاية بعد الصوت ، فالزموا أوله (يا) أو (وا) وآخره الألف في الأكثر من الكلام ؛ لأن الألف أبعد للصوت ، وأمكن للمد " [٥٠].

وكما اهتم سيبويه بجميع عناصر السياق اللغوي ، فقد اهتم أيضاً بعناصر السياق غير اللغوي ، أو (الحال) كما يسميه بنفسه ، كالمتكلم والمخاطب والعلاقة بينهما وموضوع الكلام وأثر الكلام والحركة الجسيمة المصاحبة للحديث الكلامي وغير ذلك من العناصر غير اللغوية المصاحبة للكلام المنطوق [٥١].

فمن أمثلة اهتمامه ببيان العلاقة بين المتكلم والمخاطب ، وما ينتظره المخاطب من المتكلم ، لأن المتكلم إذا قال: (كان زيدٌ) فإن المخاطب " إنما ينتظر الخبر " [٥٢] ، وإذا قال المتكلم: (كان حليماً) " فإنما ينتظر ــ أي المخاطب ــ أن تعرّفه صاحب الصفة " [٥٣].

ويحمل سيبويه كلام المجيب على كلام المستفهم ، فللمسؤول أن يورد الجواب على منهاج الاستفهام ، فإذا قال: " الرجل: من رأيت وأيّهم رأيت ، فتقول: زيداً رأيتُه .... ومثل ذلك قولك: أرأيت زيداً ، فتقول: لا ولكنْ عَمْرَاً مررتُ به .... فإن قال: من رأيته وأيّهم رأيته ، فأجبته قلت: زيدٌ رأيتُه ..... فإنما تحمل الاسم على ما يحملُ السائلُ " [٥٤].

بل إنه في موضع آخر يبين أن الجواب من المخاطب يكون على قدر ما فهمه من مسألة السائل ، فهو يجيب على ما عنده من معنى ، فإذا قال المجيب: مررتُ برجلين مسلمٍ وكافرٍ ، وجعل (مسلمٍ وكافرٍ) بدلاً ، فكأنه: " أجاب من قال: بأيٍّ ضربٍ مررتُ ؟ وإن شاء رفع ، كأنه أجاب من قال: فما هما ؟ فالكلام على هذا وإن لم يلفظ به المخاطب ؛ لأنه يَجري كلامه ــ أي جوابه ــ على قدر مسألتك عنده لو سألته " [٥٥] .

---

[49] سيبويه. الكتاب ، ٢٢٠/٢ .

[50] الأعلم الشنتمري. يوسف بن سليمان ، النكت في تفسير كتاب سيبويه ، تح. زهير عبد المحسن سلطان ، د.ط ، معهد المخطوطات العربية (١٩٨٧) ، ٥٦٤/١.

[51] سمّى سيبويه هذا الضرب من السياق " ما يرى من الحال " أو " ما فيه من الحال " ويقصد بذلك " سياق الحال ". انظر: الكتاب ٢٧٢/١ .

[52] سيبويه ، الكتاب: ٤٨/١ .

[53] المصدر السابق: ٤٩/١.

[54] المصدر السابق: ٩٣/١-٩٤.

[55] المصدر السابق: ٤٣١/١.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

ويهتم سيبويه ببيان الحال المصاحبة للتركيب ، أو ما يسمى بملابسات " المسرح اللغوي " [٥٦] ، وما يترتب على ذلك من المفاضلة بين التراكيب ، أو الحكم على العبارة بالحسن أو الإحالة الدلالية ، كما في قوله: " وذلك أن رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبدُ الله منطلقاً ، وهو زيدٌ منطلقاً ، كان محالاً ؛ لأنه أراد أن يخبرك بالانطلاق ، ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية ، لأن هو وأنا علامتان للمضمر إذا علم أنك قد عرفت من يعني. إلا أن رجلاً لو كان خلف حائط ، أو في موضع تجهله فيه ، فقلت: مَنْ أنت ؟ فقال: أنا عبدُ الله منطلقاً في حاجتك ، كان حسناً " [٥٧].

فإنما حكم سيبويه على التركيب (أنا عبد الله منطلقاً) و(هو زيدٌ منطلقاً) بالإحالة ــ على الرغم من أنه من وجهة النظر النحوية صحيح ــ استناداً إلى ما أراده المتكلم من معنى ؛ لأنه إنما أراد أن يخبرك عن نفسه أو غيره بالانطلاق ، فكان حقه أن يقول (أنا منطلق) و(هو منطلق) ، ولأنك لا تضمر فتقول (أنا) أو (هو) حتى تكون معروفاً ، فتستغني عن قولك (عبد الله) أو (زيد) ، في حين حكم على التركيب نفسه (أنا عبدُ الله منطلقاً في حاجتك) بالحسن استناداً إلى ملابسات المسرح اللغوي المصاحبة للتركيب ، لأن المتكلم ينادي رجلاً خلف حائط فهو يجهله أو يجهل مكانه ، فمن ثم أفاد قوله (أنا عبد الله) ثم بيّن حاله.

وهكذا نجد سيبويه ينظر إلى الجملة الواحدة فيحكم عليها في موقف من الاستعمال بأنها خطأ وفي موقف من الاستعمال آخر بأنها صواب ، " وهذه الجملة لو اكتفى بالنظرة الشكلية الذاتية ، جملة نحوية جائزة ، ولكن اللغة عنده لم تكن تنفك عن ملابسات استعمالها ، ومقاييس اللغة عنده تستمد من معطيات النظام الداخلي التي تكتنف الاستعمال اللغوي ، فالتعبير واحد ولكن الذي اختلف هو السياق الملابس للكلام " [٥٨].

وأما عن علاقة سياق الحال عند سيبويه بقرينة التضام وتسويغه لحذف أحد عناصر الجملة ، فهذا مما كثرت أمثلته عنده. والحق أن إشارات سيبويه الذكية والرائدة في هذا الباب تجعله سبّاقاً لأحدث الاتجاهات اللغوية في زماننا ، إذ لم تفته العناية بأثر الحركة الجسيمة وعناصر الموقف المستمدة من الحواس الخمس في بنية التركيب ودلالته ، وهو ما ينجلي من المثال الآتي:

أجاز سيبويه حذف الكاف من اسم الفعل (رويدك) ، " استغناء بعلم المخاطب أنه لا يعني غيره " [٥٩] ، والمعروف أن (الكاف) إنما تلحق (رويداً) " لتبين المخاطب المخصوص ؛ لأن (رُوَيْد) تقع للواحد والجميع ، والمذكر والأنثى ، فإنما أدخل الكاف حين خاف التباس من يعني بمن لا يعني " [٦٠].

وهكذا التفت سيبويه إلى " أن لموقف الخطاب حالات متباينة ، وتنبّه إلى أن العبارة اللغوية تتباين على قدر ذلك ، فإذا كنت تستمهل رجلاً على حِدَتِه رأيته يعالج شيئاً قلت: رويداً ، أما إذا كنت تستمهل رجلاً في جماعة ، فإنك تقول: رويدك .... الخ " [٦١]. فلقد جعل سيبويه إقبال المخاطب بوجهه وإنصاته إليك مسوغاً لحذف الكاف من (رُوَيْدَك) لأن حاله يغني عن لحاق الضمير به ، وشبهه بحذف حرف النداء اكتفاء بإقبال المنادى عليك ، فتقول له: (أنت تفعل) وتستغني عن قولك (يا فلان).

---

[56] بشر ، كمال. علم اللغة الاجتماعي (مدخل) ، ص٨٧.

[57] سيبويه ، الكتاب: ٢/٨٠-٨١.

[58] الموسى ، نهاد. نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، ص٩٢.

[59] سيبويه ، الكتاب: ١/٢٤٤ .

[60] المصدر السابق: ١/٢٤٤.

[61] الموسى ، نهاد. نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، ص٩٥.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

كما أشار سيبويه إلى ما يعمد إليه المتكلم من حذف المبتدأ اعتماداً على القرائن الحالية المصاحبة للكلام والمرتبطة بحاسة من الحواس الخمس ، فيقول: " عبدُ الله وربّي ، كأنك قلت: ذاك عبدُ الله ، أو هذا عبدُ الله ، أو سمعت صوتاً فعرفت صاحب الصوت ، فصار آية لك على معرفته ، فقلت: زيدٌ أو المسكُ ، أو ذقتُ طعاماً فقلت: العسلُ ، ولو حدَّثتُ عن شمائل رجل فصار آية لك على معرفته لقلت :عبدُ الله ، كأن رجلاً قال: مررتُ برجلٍ راحمٍ للمساكين بارٍ بوالديه ، فقلت: فلانٌ والله " [٦٢].

" فإذا كان سيبويه في أمثلة سابقة قد أشار إلى حذف أحد عناصر التركيب لدلالة الحركة الجسمية عليه ، فإنه في هذا الموضع يتحدث عن المتكلم المعبر عن نفسه دون التوجه بكلامه هذا إلى مخاطب بعينه ، وجعل ما يحيط به من عناصر مستمدة من الموقف والمرتبطة بحواسه الخمس ــ كالرؤية والسمع والمسّ والشم والتذوق ــ أو المرتبطة بمعرفته للمخاطب عن طريق سابق تحدّث عنه دليلاً على المبتدأ المحذوف ، وتصبح هذه الأشياء الواقعة في مجال خبرة الحواس أو المعرفة جزءاً من نسيج اللغة ، وتقوم مقام العناصر اللغوية الخالصة " [٦٣].

وبعد هذا العرض ، فإنه بوسعنا أن نشير إلى عدد من النتائج المهمة المتعلقة بالسياق عند الأوائل من علماء العربية:

أولاها: أن علماء اللغة قديماً وحديثاً أدركوا الوظيفة المهمة للسياق. ولم يكن علماء العربية بعيدين عن إدراك وظيفة السياق ودلالته ، فقد استعان علماء القرآن الكريم والأصوليون بشقي السياق في فهم دلالة النصوص الشرعية. كما ربط عبد القاهر الجرجاني في فصاحة الكلمة بسياقها اللغوي والتركيب الذي قيلت فيه ، وذلك عند حديثه عن نظرية النظم وربط الكلام بمقام استعماله.

فلقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة (المقام) متقدمين بفهمهم لأصول السياق ، لأن هذه الفكرة بوصفها من أسس تحليل المعنى تعد الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة. وحين قال البلاغيون: " لكل مقام مقال " و" لكل كلمة مع صاحبتها مقام " وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط ، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء.

" ولم يكن أقل من هاتين العبارتين صدقاً في تحليل اللغة ما سبق إليه النحاة العرب في مقولتهم المشهورة "الإعراب فرع المعنى" ،فهذه المقولة أيضاً من جوامع الكلم إذا فهمنا الإعراب بمعنى (التحليل) ؛ لأن كل تحليل لا يكون إلا عند فهم المعنى الوظيفي لكل مبنى من مباني السياق " [٦٤] .

ثانيها: أن النحويين الأوائل ــ وعلى رأسهم الخليل وسيبويه ــ اعتمدوا على السياق بشقيه في التقعيد النحوي، ويبدو ذلك جلياً من اعتمادهم على السياق اللغوي في بيان مبنى التركيب ودلالته وتجويزهم بهذا السياق حذف أحد عناصر الجملة وطريقة ترتيب هذه العناصر اللغوية داخل التركيب ، واستعانتهم بطرق الأداء اللغوي المصاحبة للنطق بالعبارة كالوقف والنبر والتنغيم.

وأما اعتمادهم على سياق الحال فيتضح من استعانتهم بإرادة المتكلم والمخاطب في تعيين معنى التركيب واهتمامهم بمضمون الرسالة وضرورة اختيار المفردات المناسبة لكل باب ، واستعانتهم بملابسات الحال في التوجيه

---

[62] سيبويه ، الكتاب: ١٣٠/٢ .

[63] الموسى ، نهاد. نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، ص٩٠.

[64] انظر: د. حسان ، تمام. اللغة العربية ، معناها ومبناها. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ ، سنة ١٩٧٩ م ، ص٣٧٢.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

النحوي ، والحكم على التركيب بالصحة أو الإحالة ، وتسويغ الحذف استناداً على دلالة الحركة الجسيمة والحواس الخمس وباقي عناصر سياق الحال.

ثالثها: أنه إذا كان كتاب سيبويه يمثل أولى المحاولات المكتوبة التي وصلتنا من التراث النحوي ، فهو يمثل أيضاً قمة الدراسات النحوية التي سبقته ، ويعد مصطلح (الحال) الذي استخدمه سيبويه أقدم مصطلح في التراث العربي النحوي ــ على حد علمي ــ يقترب من مفهوم (سياق الحال) في أيامنا ، ولعل هذا المصطلح عند سيبويه يرجع إلى أستاذه الخليل.

وهكذا تلتقي تطبيقات الخليل وتلميذه سيبويه مع أحدث الاتجاهات اللغوية مع تباعد الزمن والشقة [٦٥] إذ كانا يعوّلان على شقّي السياق على النحو المبين في الملحوظة السابقة ، مما يجعلنا نقول دون تردد: إنهما يعدان بحق رائدي النظرية السياقية ، إذا طبقا عملياً ، وبإحكام جميع عناصر هذه النظرية مع أدق تفاصيلها ، ولم يتركا ــ تقريباً ــ شيئاً مما عرفته الدراسات الاجتماعية الحديثة إلا ومارساه تطبيقاً في الكتاب.

ولكن يبدو أن النحاة من بعد الخليل وسيبويه لم يطوروا هذه الملحوظات والتطبيقات العملية الذكية له ، " فقد اتجهت الدراسات النحوية من بعدهما إلى الجانب التحليلي لا التركيبي ، فأصبحت تُعنى بتحليل مكونات التركيب أكثر من عنايتها بالتركيب نفسه ، ولكن النحاة لم يفطنوا إلى طبيعة التعارض الممكن بين مطالب التحليل ومطالب التركيب " [٦٦].

ولعل هذا هو سبب العتاب الذي وجهه سيبويه نفسه إلى طائفة من النحاة الذين كانوا يتهاونون بالقيمة الدلالية الناشئة عن الاختلاف في الأساليب إذا ظهر عندهم الإعراب ، ويجعل سيبويه معرفة قبح التركيب وضعفه أمثل من إعرابه وهي إشارة منه إلى طائفة من النحاة لم يهتموا بالدلالة والملابسات الحالية المقترنة بالعبارة [٦٧].

ويبدو أن هذا أيضاً هو السبب في ثورة عبد القاهر الجرجاني على اللغويين العرب الذين لم يفيدوا من المبدأ الجيد الذي وضعه سيبويه ، ألا وهو ربط الكلام بمقام استعماله.

---

[65] عبد اللطيف ، محمد حماسة. النحو والدلالة ، ط١ ، القاهرة ، دار غريب ، (١٩٨٣) ، ص١١٥-١١٦.

[66] حسان ، تمام. اللغة العربية معناها ومبناها ،ط٢ ،الهيئة العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٩ م ، ص١٦-١٧.

[67] سيبويه ، الكتاب: ٢/٨٠ ، ١٢٤.

Generated by Foxit PDF Creator © Foxit Software
http://www.foxitsoftware.com For evaluation only.

المراجع:

١- الأعلم الشنتمري ، أبو الحجاج يوسف بن سليمان. *النكت في تفسير كتاب سيبويه* ، ت: زهير عبد المحسن سلطان ، معهد المخطوطات العربية ، د. ط ، ١٩٨٧.

٢- بشر ، كمال. *دراسات في علم اللغة (القسم الثاني)*. مصر ، دار المعارف ، د. ط ، ١٩٦٩.

٣- التهانوي. *كشاف اصطلاحات الفنون*. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د. ط ، ١٩٧٧.

٤- ثابت ، فتحي علم الدين. *أثر السياق في مبنى التركيب ودلالته*. رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة المنيا ، مكتبة الدراسات العربية والإسلامية ، ١٩٩٤ م.

٥- الجرجاني ، عبد القاهر. *دلائل الإعجاز*. تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية ، ط٢ ، دمشق ، مكتبة سعد الدين ، ١٩٨٧ م.

٦- حبلص ، محمد يوسف. *البحث الدلالي عند الأصوليين* ، القاهرة ، مكتبة عالم الكتب ، د.ط ، ١٩٩١ م.

٧- حسان ، تمام. *قرينة السياق* ، القاهرة ، مطبعة عبير للكتاب ، د. ط ، ١٩٩٣.

٨- حسان ، تمام. *اللغة العربية معناها ومبناها* ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ ، ١٩٧٩ .

٩- حيدر ، فريد عوض. *سياق الحال في الدرس الدلالي (تحليل وتطبيق)* ، مصر ، مكتبة النهضة المصرية ، د. ط ، د.ت.

١٠- زهران ، البدراوي. *عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني (المفتن في العربية ونحوها)*. القاهرة ، دار المعارف ، ط٢ ، ١٩٨٧ م.

١١- السعران ، محمود. *علم اللغة ــ مقدمة للقارئ العربي ــ* ، بيروت ، دار الفكر العربي .

١٢- أبو السعود ، دردير محمد. *دلالة السياق وأثرها في الأساليب العربية*. مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة أسيوط ، عدد ٧ ، ١٩٨٧.

١٣- سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. *الكتاب*. تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ط٣ ، ١٩٨٨.

١٤- عبد اللطيف ، محمد حماسة. *النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي)* ، القاهرة ، دار غريب ، ط١ ، ١٩٨٣.

١٥- عبد المطلب ، محمد. *قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني* ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، ط١ ، ١٩٩٥ .

١٦- العبيدان ، موسى مصطفى. *دلالة تركيب الجمل عند الأصوليين* ، ط١ ، دمشق ، سورية ، دار الأوائل ، ٢٠٠٢.

١٧- عمر ، أحمد مختار. *علم الدلالة*.

١٨- الغزالي ، الإمام أبو حامد. *المستصفى من علم الأصول*. القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ط١ ، ١٣٢٢ هـ.

١٩- ابن منظور ، جمال الدين بن مكرم. *لسان العرب* ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ط٢ ، ١٩٩٢.

٢٠- الموسى ، نهاد. *نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث* ، عمان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١ ، ١٩٨٠.

٢١- النسفي ، حافظ الدن ، أبو البركات عبد الله بن أحمد. *كشف الأسرار شرح المنصف على المنار* ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.